

دلائل الإعجاز

والثاني : أن يكونَ المعطوفُ شيئاً لا يكونُ حتى يكونَ المعطوفُ عليه . ويكونَ الشرطُ لذلك سبباً فيه بوساطةِ كونهِ سبباً لأوّلِ ومثاله قولُك : إذا رجَعَ الأميرُ إلى الدار استأذنتهُ وخرجتُ فالخروجُ لا يكونُ حتى يكونَ الاستئذانُ وقد صارَ الرجوعُ سبباً في الخروجِ من أجلِ كونهِ سبباً في الاستئذانِ . فيكونُ المعنى في مثلِ هذا على كلامين نحوُ : إذا رجَعَ الأميرُ استأذنتُ وإذا استأذنت خرجتُ .

وإِذْ قد عرفتُ ذلك فإنّه لو عطفَ قولُهُ تعالى : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ) على " قالوا " كما زعمتَ كان الذي يتصوّرُ فيه أن يكونَ من هذا الضربِ الثاني وأن يكونَ المعنى (وإذا خَلَاوا إلى شياطينهم قالوا إنّنا معكم إنما نحن مستهزئون) . فإذا قالوا ذلك استهزأوا اِنَّهُمْ بهم ومدّهم في طُغيانهم يعمهون . وهذا وإن كان يُرى أنه يَسْتَدْقِمْ فليس هو بمستقيمٍ وذلك أنّ الجزاءَ إنّما هو على زَفَسِ الاستهزاءِ وفِعْلِهِم له وإرادتهم إيّاه في قولهم إنّنا آمنا لا على أنّهم حدّثوا عن أنفسهم بأنّهم مستهزئون والعطفُ على " قالوا " يَقْتَضِي أنّ يكونَ الجزاءُ على حديثهم عن أنفسهم بالاستهزاء لا عليه نفسه . ويبينُ ما ذكرناه من أنّ الجزاءَ يَنْبَغِي أن يكونَ على قَصْدِهِم الاستهزاءَ وفِعْلِهِم له لا على حديثهم عن أنفسهم بأنّهم مستهزئون أنّهم لو كانوا قالوا لكُبرائهم : (إنّنا معكم نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) : وهُم يريدون بذلك دَفْعَهُمْ عَنْ أنفسهم بهذا الكلامِ وأن يَسْلَمُوا من شَرِّهِمْ وأن يوهموهُم أنّهم مِنْهُمْ وإن لم يكونوا كذلك لكان لا يكونُ عليهم مؤاخذهُ فيما قالوه من حَدِيثُ كانت المؤاخذهُ تكونُ على اعتقادِ الاستهزاءِ والخديعةِ في إظهارِ الإيمانِ لا في القولِ : إنّنا استهزأنا من غيرِ أن يقترنَ بذلك القولِ اعتقادُ ونِيَّةُ .

هَذَا وَهَاهُنَا أمرٌ سَوَى ما مضى يوجبُ الاستئنافَ وتركَ العطفِ وهو أنّ الحكايةَ عنهم بأنهم قالوا : كَيْتَ وَكَيْتَ تحرّكُ السامعينَ لأن يعلموا مصيرَ أمرِهِمْ وما يُصْنَعُ بِهِمْ وَأَتَنَزَّلُ بِهِمْ النَّقْمَةُ عاجلاً أم لا تنزلُ ويُمَهِّلُونَ وتوقعُ في أنفسهم التَّحَدُّثَ لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ لَهُمْ ذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ) في معنى ما صَدَرَ جَوَاباً عن هذا المقدّرِ وقوعُهُ في أَزَفَسِ السامعينَ . وَإِذَا كَانَ مَصْدَرُهُ كَذَلِكَ كَانَ حَقُّهُ أَنْ يُؤْتَى بِهِ مَبْتَدَأً غَيْرَ معطوفٍ لِيَكُونَ فِي صَوْرَتِهِ إِذَا قِيلَ : فَإِنَّ سَأَلْتُمْ قِيلَ لَكُمْ : (اِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ وَيَمْدُدُّهُمُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

وَإِذَا اسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمُ الْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا
يَقْتَضِي